الفصل التاسع

عبادة مظاهر الطبيعة

كيف أدّى الاعتقاد بالأرواح إلى عبادة مظاهر الطبيعة؟

يرى تايلور أن بعض الأقوام المتوحشة التي تقدمت في الحضارة بعض التقدم والأقوام البربرية تتصور بحق أن الأحجار والعصي والأسلحة والطعام والملابس وأدوات الزينة وأمثال ذلك أي المواد التي نعتبرها مجردة من الحياة، مواد لها روح أو نفس تنفصل عنها وتبقى حية حتى بعد أن يصيبها التلف. ومهما يكن من غرابة هذا الرأي، فإن العقل قد لا يرفضه رفضاً باتاً إذا حاول المرء أن يربط ذلك بالعقلية البدائية التي سادت الشعوب المتوحشة، والتي تنسب الحياة للمواد الجامدة. وأستدل على ذلك بما ذكره الفيلسوف الإنجليزي «هيوم» ***David Hume*** في كتابه: (تاريخ الأديان الطبيعي). وقال: «إن لدى الإنسان ميلاً تاماً لأن يعتقد بأن جميع الموجودات تشبهه لهذا أعطى لكل مادة الخصائص المألوفة لديه والتي يشعر بها تماماً». ولا غرابة في أن يعمم الإنسان البدائي فكرة الروح للحيوان والنبات والجماد على السواء، ثم يتصور أن جميع مظاهر الطبيعة من كواكب ونجوم وجبال وأنهار والشمس والقمر والصاعقة والعاصفة لها أرواح تحركها.

فالنار التي تلتهم الأخضر واليابس، والعاصفة التي تقلع الأشجار، والصاعقة التي يسبقها دمدمة الرعد فتحرق الضرع والزرع جميعها تعمل بأمر الأرواح التي سخرتها. وكذلك كان يظن البشر أن النبات والجماد يتصفان بالخصائص التي

يتصف الإنسان بها، واعتقدوا أن لكل منها جسداً وروحاً مع فرق هو أن روح البشر لا تترك الجسد إلا بعد الموت. وإذا التحقت بالأرواح فإنها تفضل الحلول في البشر على الحلول في مواد الطبيعة. ولذلك يعتبر البدائيون المرض والعجز والصحة والنشاط من عمل الأرواح البشرية. أما العاصفة والصاعقة والمطر والخصب وغير ذلك فمن عمل سائر الأرواح. ويعزون الرعد والبرق والخسوف والكسوف والصاعقة والمجاعة والموت الفجائي إلى الأرواح الخبيثة، ويعزون الخصب والمناخ الصالح والظفر بالحيوانات المفترسة إلى مساعدة الأرواح الطيبة.

ويتضح من ذلك أن الفكرة الأولى قامت على عبادة الأرواح، ثم على عبادة الأجداد. وتطورت بالتدريج إلى أن أصبحت فلسفة الكون وغدت المظاهر الطبيعية محل الاحترام والتبجيل والعبادة كالأرواح والأجداد. وصارت النذور والقرابين تقدم إلى الأرواح التي حلت في تلك المظاهر، وهكذا انتقل الإنسان من عبادة الأجداد إلى عبادة الطبيعة وصارت الروحية منشأ لعبادة الطبيعة[1].

استند واضعو نظرية الطبيعة في بحثهم في منشأ الأديان إلى أساس يختلف تماماً عن الأساس الذي استند إليه واضعو النظرية الروحية. فقد رأينا أن هؤلاء استندوا إلى التصور والخيال في زعمهم أن الجماعات الأولى عبدت أول ما عبدت الروح، وقالوا بأن الأحلام واليقظة والنوم هي التي نبهت البشر إلى فكرة الروح. أما العلماء الذين وضعوا نظرية الطبيعة فقد استندوا إلى المحسوس وقالوا إن الجماعات الأولى عبدت مظاهر الطبيعة. وبذلك بنوا نظريتهم على مادة تُرى وتُلمس آثارها باليد. ويذكر «ماكس مولر» ***Max Müller***، وهو أول من وضع هذه النظرية، أن الدين يستند إلى التجربة ويستلهم أحكامه ونفوذه منه. ويقول في ذلك: «إن الدين بوصفه العنصر المنبثق من شعورنا فإنه لكي يمثل مقامه يبدأ بتجربة محسوسة تستند إلى الحواس». ويؤكد بأن الدين لا ينطوي إلا على ما كانت الحواس قد أحست به قبلاً. ويستند في ذلك إلى القول المشهور: «لا يوجد شيء في العقل من دون أن يكون قبلاً في الحواس».

---

[1] طه الهاشمي: تاريخ الأديان وفلسفتها، مرجع سابق، ص 69-70.

إن أنصار النظرية الروحية توصلوا إليها عن طريق دراستهم لعلم الأقوام وعلم البشر (الأثنولوجيا والأنثروبولوجيا). أما أنصار النظرية الطبيعية فتوصلوا إليها بدراسة أديان الأقوام الآرية القديمة عن طريق الفيلولوجيا. وقد ساعد على نشر هذا الرأي - عبادة مظاهر الطبيعة - بين علماء الأديان دراستهم لأساطير الأقوام الهندية الأوروبية، كالهنود واليونان والرومان والشعوب الجرمانية القديمة. وقد تبيّن لهم بعد البحث عن أبطال الأساطير أنها تتشابه من حيث الأفكار والأفعال في أساطير أقوام مختلفة تدل على أن الأساطير نبعت من معين واحد. ولما كانت هذه الأساطير بأجمعها تذكر مآثر الأشخاص الذين يمثلون مظاهر الطبيعة استنتج الباحثون أن الأقوام بأجمعهم كانوا في بدء حياتهم يعبدون مظاهر الطبيعة التي ألهوها ونسبوا إليها الحواشي والذيول المختلفة باختلاف البيئة.

كيف دانت الجماعات الأولى بدين الطبيعة؟

وضع نظرية الطبيعة «ماكس مولر» المتخصص في لغات الأقوام الهندية - الأوروبية. شرح نظريته هذه في كتابه الذي نشره في إنكلترا سنة 1856 بعنوان: (بحوث في علم الأساطير المقارن)، وذلك بعد أن عثر على كتاب (الفيدا) وهو أقدم كتاب ديني عند الهنود، اعتبره العلماء مصدراً لجميع الأديان الآرية، أي دين الهنود ودين الفرس ودين اليونان ودين الرومان ودين الشعوب الجرمانية والسلافية القديمة. ويبسط «ماكس مولر» نظريته كما يلي: «إن مظاهر الطبيعة كانت أول ما استرعى انتباه البشر الأول ودهشته عندما نظر إلى الكون. ولشدة نفوذها وتأثيرها في نفسه نبهت فيه فكرة الدين فعبد الطبيعة. ولم يعتبر البشر هذه المظاهر من الأمور المعتادة إلا بعد زمن طويل، أي بعدما اتسعت مداركه. رأى البشر القمر يبزغ هلالاً فيكبر حتى يبدر، ثم يصغر حتى يعود كالعرجون القديم. وما كانت الجماعات الأولى لتعبد الطبيعة لولا أن رأت في الكون مجموعة من الخوارق والمعجزات التي جهلت أسباب حدوثها فاحترمتها وتهيبتها». ويضيف إلى ذلك قائلاً:

«ارجعوا بأذهانكم إلى دور من أدوار الحياة البدائية، لم يكن قد ظهر دين الطبيعة، حتى ولا أولى مظاهره. وباستطاعتكم وقتئذٍ أن تتصوروا ما أثرته النار في

عقل البشر حينما شاهدوها لأول مرة. ولا يهمنا كيف ظهرت النار سواء حصلت باحتكاك الأغصان أو انبثقت من احتكاك الأحجار أو اشتعلت بواسطة صاعقة... لقد كانت النار دون شك حدثاً عظيماً، شيء يزحف من جهة ويقتضي الحذر منه من جهة أخرى، فهي من ناحية تحمل معها عنصر التخريب، ومن ناحية أخرى تجعل الحياة في الشتاء مستساغة، تحمي الإنسان في الليل وتهيئ له سلاحاً في الهجوم والدفاع. واستخدمها البشر في طبخ طعامهم والتخلص من أكل اللحم النيئ. وبفضلها سبكوا المعادن فصنعوا الأدوات والأسلحة. وبذلك أصبحت عنصراً ضرورياً للرقي الفني والصناعي. وحتى في يومنا هذا لو حدث أن فقدنا النار ترى ماذا كانت تؤول إليه حالتنا؟

أحاطت الطبيعة بالإنسان من كل جانب. والنهر يجري باستمرار ولا يعلم الإنسان من أين أتى وإلى أين يذهب؟ وهو يجري صاخباً دفاقاً، هكذا بدا للناس قوة لا تنتهي ولا يستطاع تجفيف قاعه. والبحر ممتد أمامه ولا نهاية له، وإذا ما هبت العاصفة وارتفعت أمواجه هدارة على السواحل، والسماء بعظمتها وجلالها بشمسها وكواكبها. وكل مظهر من مظاهر الطبيعة يولد الشعور بالتصاغر والضعة أمامه، وهو يحيط بنا ويسيطر على مشاعرنا، وهكذا انبثقت الأديان من هذا الشعور. وقد استحوذت تلك القوى الخارقة على عقل البشر، ففكر فيها وخضع لها. هذا أمر لا سبيل إلى إنكاره. ولا بد للإنسان أن أعمل فكره فيها لمعرفة تلك القوى وبذل جهده ليستخلص منها فكرة واضحة ومفهوماً معيناً.

ويستشهد «مولر» على عبادة الأقوام الهندية - الأوروبية لمظاهر الطبيعة بكتب (الفيدا)، وهي مجموعة من الأساطير الدينية الهندية القديمة والطقوس والآداب التي ينبغي مراعاتها. وهي مكتوبة باللغة السنسكريتية، لغة الهنود القديمة. ومن دراسة دقيقة لهذا الكتاب يتبين أن أسماء الآلهة المسطورة في (الفيدا) تشبه أسماء الآلهة المسطرة في أساطير الأقوام الآرية ألأخرى. فإله النار الذي كانت له منزلة سامية بين آلهة الفيدا يسميه الهنود «أجني» ***Agni***، والكلمة هذه تدل على مادة من مواد الكون وهي النار ولها شبيه في اللغات الهندية الأوروبية القديمة. ففي اللغة اللاتينية توجد كلمة «أجنيس» ***Agnis***، وفي اللغة السلافية القديمة كلمة «أوجني» ***Ogni***

وفي اللغة اللتوانية «أوجنيس» *Ognis*، ومعنى هذه الكلمات (النار). وكذلك يطلق الهنود على إله السماء كلمة «دياؤس» *Diaos* السنسكريتية أي (السماء اللامعة). ويسمي اليونان القدماء معبودهم الأعظم «زيوس» *Zeus*، أما الرومان فيسمونه «جوفيس» *Jovis*. وفي اللغة الجرمانية القديمة يسمى إله السماء «زيو» *Zio*. والأسماء هذه تدل على أسماء متقاربة تعني السماء. واستدل «ماكس مولر» من هذه الأسماء المتشابهة التي تدل على مظاهر الطبيعة كالنار والسماء، وفي الوقت نفسه تعني أسماء آلهة تمثل النار والسماء والنور، استدل بها على أن الأقوام الهندية - الأوروبية جميعاً كانت تدين بدين واحد في مهد نشأتها، ثم تفرقت واحتفظت بأسماء الآلهة التي كانت تعبدها.

ويقول «دوركهايم» في كتابه (الأشكال الأولية للحياة الدينية): «إن ماكس مولر، لأجل أن يدعم رأيه، استند دائماً إلى الملاحظات النفسية، فرأى أن ما عرضته الطبيعة من مناظر متنوعة انطوت على جميع الأسباب التي أدّت إلى انبثاق الفكرة الدينية وأثارت الطبيعة في نفوسهم دوافع من الخوف العظيم والدهشة البالغة، وما برحت الطبيعة في نظرهم مبعث خوارق ومعجزات»[1].

كيف ألهت الجماعات الأولى مظاهر الطبيعة وعبدتها؟

يدّعي «ماكس مولر»، أن الذي جعل البشر يؤلهون قوى الطبيعة هو الكلام. وقف البشر أمام ظواهر الطبيعة، فأرادوا تسمية الأشياء بمسمياتها، وفي هذا الصدد يقول: أصبحت السماء مألوفة لدينا، حتى أننا لا نكاد نقدر الصعوبات التي كان البشر قد تجشموها في وضع الأسماء المذكورة. وليس بالإمكان أن نتصور لغة من دون أسماء مجردة. ومع ذلك توجد بعض اللهجات للتخاطب في يومنا هذا ولا تتضمن أسماء مجردة وكلما رجعنا القهقرى بتاريخ اللغة وجدنا تلك الأسماء أكثر فأكثر. إنّ الاسم المجرد إذا لوحظ من ناحية اللغة لم يكن صفة انقلبت إلى موصوف، بيد أننا نفهم الصفة بمثابة فاعل له أمر بالغ الصعوبة. وحين نقول (أحب الفضيلة) يندر أن نفرد كلمة للفضيلة ذات معنى واضح كل الوضوح، إذ ليست

---

[1] طه الهاشمي: تاريخ الأديان، ص 73-74.

الفضيلة كائناً حياً وكائناً غير مادي، كما أنها ليست كائناً فردياً أو شخصياً أو فاعلاً. ولم يكن ثمة شيء يمكن بذاته أن يحدث في نفسنا انطباعاً يعبر تعبيراً خاصاً. ولم تكن الفضيلة إلا تعبيراً مختصراً. ولما قال الإنسان: «إني أحب الفضيلة» لأول مرة أراد بذلك أن يعبّر بكلمة عما يطابق المعنى التالي: «إني أحب جميع الأمور التي تليق برجل شريف سواء من الذكور أو من الإناث». وهناك كلمات أخرى لا يصح تسميتها بأسماء مجردة ومع ذلك فقد وضعت لها أسماء بنفس الطريقة السابقة. مثال ذلك بعض الأسماء كالليل والربيع والشتاء والفجر والغسق والعاصفة والصاعقة. ترى ماذا نقصد حينما نتكلم عن الليل والربيع والشتاء؟ والزمان بموجب فهمنا ليس اسماً موصوفاً ولا ذاتياً ولكنه صفة قلبته اللغة إلى ذات أو ماهية، ولهذا فنحن حين نقول: «بدأ النهار أو قرب الليل» نستعرض أسماء لا يمكن أن تتحرك، ومع ذلك نفرضها متحركة ونثبت كلاماً إذا ما حلل منطقياً يبدو أنه من دون فاعل قابل للتعيين.

وينطبق ذلك على الأسماء المشتركة أيضاً كالسماء والأرض والندى والمطر والأنهار، والجبال، لأنه حينما نقول: «الأرض تغذي البشر» لا نشير إلى قطعة معينة من التربة ولكننا نشير إلى الأرض ككل. وكذلك لا نقصد ذلك الأفق الضيق الذي نحيطه بأبصارنا إنما نتصور ثمة شيئاً لا يستوعبه شعورنا، ولكننا نسميه كلاً أو قوة أو فكرة عندما نتكلم عنه وبذلك نجعله شيئاً فردياً. وفي اللغات القديمة كان لكل من هذه الأسماء لاحقة تدل على الجنس مما يولد في النفس فكرة ذات صلة بالجنس. وكان من أمر ذلك أن السماء المذكورة لم تأخذ صيغة فردية فحسب إنما أخذت صيغة جنسية أيضاً، ولا يوجد اسم موصوف لم يكن مذكراً أو مؤنثاً. وما دام البشر لا يفكر إلا بواسطة اللغة، فإنه يستحيل أن يتكلم عن الصبح والمساء والربيع والشتاء دون أن يعطي لهذه المفاهيم شيئاً من السمة الضرورية والفاعلية والجنسية، وبكلمة أخرى سمة شخصية. وقد عبرت اللغة البدائية عن الطبيعة بكلمة «ناتورا» *Natura* وهي مجرد صفة استعملت كاسم موصوف، لأن معنى كلمة ناتورا (الأم المستعدة دوماً للولادة) أليس في هذا فكرة أكثر تحديداً مما نفهمه الآن من كلمة ناتورا - الطبيعة؟ ثم يشير «مولر» إلى

الشعراء الذين ما إن وصفوا مظاهر الطبيعة إلا وجعلوا كلاً منها يحيا ويتنفس ويتحرك، ويورد الأمثلة من أشعارهم التي تصف الشتاء والجبال والأنهار والبحار والعاصفة، ثم يستطرد قائلاً: «إذا كنا نحن بالذات نتكلم عن الشمس والعواصف وعن النوم والموت والأرض والفجر دون أن نعطي هذه الأسماء أي فكرة محددة، وإذا كنا نعبر بحرارة فهي من طبيعة القلب البشري حينما يهزه تأثير قوي - فنخاطب الرياح والشمس والسماء والبحر المحيط وكأنها تسمعنا، وإذا كانت مخيلتنا لا تستطيع أن تتصور أياً من هذه الكائنات أو أي قوة من قواها من دون أن نلبسها لباساً بشرياً، أو على الأقل نجهزها بحياة بشرية ومشاعر بشرية فلماذا نعجب إذن من كون الأقدمين استعملوا لغة تخفق بالحياة وتزهو بالألوان بدلاً من خطوط مندرسة، رخوة من الأفكار الحديثة؟ ولمَ ندهش لأن القدمين - بفضل تلك اللغة - ابتدعوا صوراً للطبيعة التي تنبض بالحياة، مزينة بالخصائص البشرية، أو بالأحرى بخصائص تتفوق على الخصائص البشرية، فجعلوا أشعة الشمس ألمع من نور العين وهدير العاصفة أكثر دوياً من صرخات الصوت البشري. إن العلم في يومنا هذا أوضح منشأ المطر والندى والعاصفة، ومع ذلك فإن أكثرية الناس ترى فيها كلمات جوفاء لا تختلف كثيراً عما كان يتصورها «هوميروس» مع فارق واحد هو أن جمالها وشاعريتها قد تضاءلت.

مما مر تتبيّن الصعوبة الكبرى التي عانتها النفس البشرية حينما اضطرت إلى التعبير عن أفكار مشتركة أو مجردة، صعوبة تفوق الصعوبات التي نجابهها في إيضاح الأساطير.

ويتضح من ذلك أن البشر الأوائل لم يروا بداً من أن يسموا القوى الطبيعية: السماء والشمس والقمر والعاصفة والصاعقة والريح والنار.. إلى غير ذلك، بأسماء أكثر ملائمة بأفعال البشر، فخلطوا بينهما، فسموا الصاعقة ناشر الشرر أو الساقط على الأرض، وسموا الريح بالأنان أو الصاخب والنهر بالجاري أو المهرول... إلى غير ذلك. ثم اعتبروا المجاز حقيقة وانتهوا إلى أن يحولوا مظاهر الطبيعة إلى أشخاص. وأضافوا إلى كل ما يرونه من المظاهر المادية، مظاهر أدبية يقوم بها أشخاص ذوو أرواح واعتبروهم العامل الحقيقي والفاعل المختار لتلك المظاهر. وجعلوا

بعد ذلك لمظاهر الطبيعة أرواحاً، وتصوروا أن هذه الأرواح القدسية هي التي تقوم بالحادثات الكونية.

وأخذت بعد ذلك اللغة تعمل عملها في إيضاح ما يخالج النفس من الأفكار، لأن ما وصفت به مظاهر الطبيعة من الأسماء والكلمات كان عاجزاً عن إيضاح الأسباب وتحليلها. وهكذا شرعت اللغة بخلق الأساطير لحل المجهولات وإيضاح الأسباب. ولما كان البشر قد أطلقوا على مظاهر الطبيعة أسماء مستنبطة من أفعال البشر كما ذكر، لذلك، كلما تحولت تلك المظاهر من حالة إلى حالة أخرى وانقلبت من صفحة إلى صفحة أخرى ازداد عدد الأسماء، فقد سميت الشمس عند طلوعها برامية النبال المذهبة في الفضاء، ولكنها ما لبثت أن سارت في الفضاء ناشرة النور والحرارة، وتشتد حرارتها في وسط السماء، وعند الغروب يحمر لونها ثم يتغير ويقرب من البياض. وهكذا أخذ كل مظهر من مظاهر الطبيعة اسماً خاصاً يعبر عنه. وظن الناس بعد ذلك أن تلك الأسماء مسميات لأشخاص مختلفين، وقد كان للأساطير والقصص النصيب الأول في ذلك.

والخلاصة: أفضت الخرافات التي اختلقتها الأساطير وقضت المناقب والسير إلى فصل الآلهة عن مظاهر الطبيعة وجعلها ممتازة عنها. ويرى «مولر» أن عبادة الأرواح نشأت من دين الطبيعة. وذكر أن البشر توصلوا إلى فكرة الروح من الميت لأنهم لم يدركوا أن الموت ينهي الحياة. وظنوا أن الروح بعد تركها للجسد تبقى خالدة وتعرج إلى المقام الأعلى. وحتى قام الأعقاب بعبادتها ولكنها لم تصل أبداً إلى درجة الآلهة التي تمثل مظاهر الطبيعة[*].

---

[*] كان لنظرية الطبيعة مقام ممتاز بعد منتصف القرن التاسع عشر وقد أشبعها القائلون بها بحثاً وتدقيقاً، ولكنها، ما إن حل القرن العشرون إلا وأخذت تتهافت أمام البحوث الشيقة الباحثة عن الروحية أولاً والطوطمية ثانياً.

obeikandi.com